مطبعة بولاق

مطبعة بولاق/ إشراف وتقديم إسماعيل سراج الدين ؛ إعداد خالد عزب، أحمد منصور
١٨٥ ص ؛ ٢١ × ٢٨ سم

عـــرض
وليد غالي نصر
ماجستير المكتبات والمعلومات
أخصائي مكتبات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

تقديم:

ما كان حديثاً يفترى ذلك الدور الذي لعبته مطبعة بولاق في الحياة المصرية خلال القرن التاسع عشر؛ حيث بدأ دورها مرتبطاً في أول الأمر بخدمة جيش محمد على باشا، وتطور بعدها إلى أن أنشئت بجوارها مجموعة من المطابع الخاصة الأمر الذي ساهم في ظهور الصحافة كأداة إعلامية أثرت في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية في مصر.

وتقتني مكتبة الإسكندرية الجديدة حالياً ما تبقى من تراث مطبعة بولاق ومكتبتها سواء آلات الطباعة والتنفيذ، وجمع الحروف، ونقوش التأسيس، والتجليد، وماكينات التذهيب، والخزانات الحديدية التي كان يودع بها أختامها. وإتمام لاهتمام المكتبة بهذه المجموعة وتعميم للفائدة أصدرت المكتبة هذا الدليل "مطبعة بولاق" الذي يحمل بين طياته تفصيلاً لحياة مطبعة بولاق وحركة الطباعة في العالم، وتاريخها في مصر.

ويقع هذا الدليل في ١٨٥ صفحة مدعمة ببعض الصور والرسومات الخاصة بالمطبعة، وبعض الإصدارات التي أصدرتها. ويتكون الدليل من مقدمة وخمسة فصول.

بزوغ فجر الطباعة في العالم:

يتناول الفصل الأول نبذة عن أهمية الطباعة في العالم، ثم عرض شرح تفصيلي لتاريخ ظهور الطباعة بداية من الشرق الأقصى، واهتم بتجربة الصين التي سبقت أوروبا في اكتشاف الطباعة بوقت طويل، وكان انتشار البوذية في الصين والبلدان الأخرى من العوامل المؤثرة في تطور الفنون الجميلة والكتابة؛ حيث كان الطلب كبيراً على الكتب المقدسة داعياً قوياً للبحث عن تقنية جديدة للطباعة والنشر.

أما أوروبا فيرجع نجاح الطباعة فيها إلى عدة أسباب أهمها: (١) التقدم التكنولوجي. (٢) تزايد الطلب على النصوص المكتوبة. (٣) نمو المدن الكبيرة والصغيرة. وهذه الأسباب وغيرها أدت إلى التفكير في إيجاد مادة جديدة ورخيصة للكتابة من ناحية، والبحث عن وسيلة تكنولوجية لسرعة النسخ والطباعة من ناحية أخرى.

مطبعة بولاق ـــ

واختلف كثير من المؤرخين حول تاريخ إنشاء مطبعة بولاق ومن المرجح أن سنة افتتاحها كان ١٢٣٥ هجرية الموافق ١٨١٩م . وللمطبعة أسماء عديدة وردت في هذا الدليل منها على سبيل المثال دار الطباعة ، ومطبعة صاحب السعادة ، والمطبعة الأميرية ببولاق ، ودار الطباعة العامرة ، ومطبعة بولاق الأميرية . ودعم الدليل هذا السرد ببعض الصور والخرائط للمطبعة وموقعها في فترات مختلفة من إنشاءها حتى الوقت الحالي .

وعن سياسة العمل في المطبعة ؛ فنظرا لأن بداية المطبعة كانت بسيطة فلم تحتاج إلى أى لوائح أو قوانين للعمل والطبع حتى جاء أول قانون للرقابة على المطبوعات في مصر بواسطة محمد على باشا ؛ والذي ارتبط بحادثة شهيرة وهى نشر قصيدة لمدرس ايطالي طعن فيها كثيرا في الدين الإسلامي وآنذاك أصدر محمد على باشا أمراً بتاريخ ١٣ يوليه سنة ١٨٢٢ م/ ٤ ذو القعدة سنة ١٢٣٨ هـ يحرم على كل الأوربيين طبع أي كتاب في مطبعة بولاق . ثم توالت بعد ذلك القوانين واللوائح لاسيما في عصر سعيد باشا الذي فرض على كل من يريد طبع كتاب أن يتقدم به إلى نظارة الداخلية ، حتى يحصل منها على ترخيص بطباعته يفيد بعدم مخالفته لسياسة الدولة والأعراف الدينية ، ثم قانون توفيق باشا للرقابة على المطبوعات ، والذي فرض على أصحاب المطابع دفع مائة جنيهاً تأمينا عند التقدم للحصول على رخصة مطبعة من وزارة الداخلية التي سوغ لها القانون إغلاق المطبعة إذا شاءت .

وتناول المعدان في هذا الدليل - بشيء من الايجاز- رحلة طباعة الكتب بالقوالب الخشبية في مصر وأوروبا حتى وصلا إلى اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة بواسطة يوهانس جوتنبرج الذي أصدر أول مطبوعاته عام ١٤٤٥ ميلادية ، ثم انتشر اختراعه في أوروبا ثم في العالم .

أما الحلقة الثالثة في رحلة الطباعة فهى ظهورها في المشرق العربي التي بدأت في تركيا كأول بلاد المشرق العربي معرفة بالطباعة ، ثم انتقلت إلى لبنان ومنها إلى سوريا .

ظهور الطباعة في مصر:

ظهرت الطباعة في مصر فعليا قبل إنشاء مطبعة بولاق وتحديداً مع دخول الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨-١٨٠١ ميلادية ، وكانت الفكرة تدعم عمل جيش نابليون بونابرت لاحتلال مصر . ثم عرض الدليل بالتفصيل كيفية إنشاء مطبعة الحملة الفرنسية في الإسكندرية والقاهرة ، وتعدد مسمياتها من "مطبعة الجيش البحرية" ثم "المطبعة الشرقية الفرنسية" وحين استقر بها المقام في القاهرة اتخذت اسم "المطبعة الأهلية" كما قدم الدليل مختارات من مطبوعات المطابع الفرنسية في مصر .

أما مطبعة بولاق فهي النقطة الفاصلة في تاريخ الطباعة في مصر . يسرد هذا الدليل عدداً من التفسيرات المختلفة لإنشاء المطبعة على يد محمد على مؤسس مصر الحديثة ، ويرجح أن السبب الرئيسي هو خدمة مشروع محمد على السياسي والحربي الذي يهدف إلى خلق حضارة مصرية جديدة .

المطبعة في عهد أسرة محمد علي:

ينتقل الدليل بعد ذلك إلى عصر ازدهار مطبعة بولاق كما يقول مؤرخو تاريخها : إن الفترة بين ١٨٣٣م- ١٨٤٢م هي عصرها الذهبي في عهد محمد علي ويقيمون الأدلة على ذلك بالإحصاءات الخاصة بالطبع والميزانية . فقد كانت المطبعة في عهد محمد علي محط اهتمامه ورعايته ؛ حيث اهتم بتجهيزها بأحدث الآلات والمعدات ، واهتم بتدريب الكوادر الفنية ، ورفع جودة المطبوعات ، كما عزى المعدان انتعاش المطبعة بعد سنة ١٨٣٢ م إلى عناصر عدة أهمها : إنشاء المدارس ، وزيادة حركة الترجمة ، وتخصيص عدد من أعضاء البعثات لتعلم فنون الرسم والحفر والطباعة ، وزيادة آلات المطبعة بشراء خمسة آلات جديدة .

ويستطرد الكتاب في سرد تاريخ المطبعة وحالتها خلال أسرة محمد علي وما بعده مدعماً ذلك ببعض جداول وإحصاءات لإصدارات المطبعة وميزانيتها ، وينتهي هذا الفصل بذكر أسماء المطابع التي نشأت في مصر (المطابع الأهلية) بعد أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق .

إصدارات مطبعة بولاق:

تنوعت إصدارات المطبعة فشملت عدة أنواع مثل : القوانين ، والكتب ، والتقاويم ، فضلا عن مجلة الوقائع المصرية ، والقرآن الكريم ، والأوراق ، والدفاتر الحكومية ، وقد تميزت إصدارات مطبعة بولاق منذ إنشائها بالدقة والتنوع ، وعلى سبيل المثال كان حصيلة ما نشرته المطبعة من الكتب خلال الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٩٤ يقترب من ٨٦٧ إصدارا ، وكان لكتب اللغات نصيب كبير منها وصل إلى ١٤٩ كتابا يليها ما صدر من كتب في مجال العلوم التطبيقية ويقدر بحوالي ١٤٧ كتابا ، أما عن الكتب التي صدرت في مجال العلوم الاجتماعية فيصل عددها إلى ١٣٣ كتابا ، وكتب الآداب ١٦ كتابا ، والديانات ٩٠ كتابا ، والعلوم البحتة ٨٩ كتابا ، والجغرافيا والتاريخ ٨٨ كتابا ، والفلسفة ٤٠ كتابا .

ويختتم هذا الدليل -وفي فصله الأخير- بنبذة عن الصحافة في عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨م إلى ١٨٠١م ، وكان أول صحيفتين هما : بريد مصر في عام ١٧٩٨م ، الثانية هي العشرية المصرية في أكتوبر من نفس السنة .

ثم يستطرد الكتاب في استعراض الدور الذي لعبته مطبعة بولاق في نشأة الصحافة المصرية وتطورها ، ويذكر أن مصر قد عرفت أول صحيفة في عهد محمد علي باشا عام ١٨١٣ متأثرة في ذلك بالصحف التي أصدرتها الحملة الفرنسية كما ذكرنا سابقاً ، وقد تبين لمحمد علي أن الشعب المصري يجب أن يطلع على أعمال الحكومة ، وأن يقف على إصلاحات الوالي فاتجه إلى إنشاء جريدة أخرى عرفت بالوقائع المصرية ، صدر أول عدد منها في ديسمبر (كانون الأول) ١٨٢٨ ، وكانت عبارة عن نشرة تذاع فيها أوامر الحكومة وإعلاناتها وسائر الحوادث الرسمية في الدولة .

الخاتمة:

قدم الدليل الذي بين أيدينا توثيقاً تاريخيا لمطبعة بولاق كبداية لتاريخ الطباعة في مصر ، ولم تكن مجرد بداية لعصر الطباعة فقط بل كان الأمر أعمق من ذلك ؛ حيث كانت بداية لليقظة الفكرية واللغوية . ويختتم القائمون على الدليل حديثهم بجملة مهمة تلخص كل ما تقدم من معلومات "فقد كانت المطبعة بحق هي بوابة العبور التي اجتازت مصر عبرها عصراً من الظلام والتخلف والضعف في كل جوانب الحياة إلى عصور أخرى تشرق فيها شموس المعرفة والازدهار والقوة في جوانب الحياة المختلفة . . .وهذا ما نأمله" ويأمله الجميع معهم .